بوصلة التحرك داخل المناطق المحتلة، الى درجة صار فيها مفكرون اسرائيليون يقارنون بين اسرائيل وجنوب افريقيا كدولة عنصرية، واضطر فيها زعيم حزب العمل، شمعون بيرس، الى الاعلان، في المؤتمر الرابع لحزب العمل، موجهاً خطابه الى الفلسطينيين: «اننا نعترف بكم كشعب. ونحن لا نستطيع فرض انفسنا عليكم بالقوة، كما انكم لا تستطيعون طردنا بالارهاب». ودعا الى التفاوض حول سبل حل هذه المشكلة القائمة؛ ولا يقلل من ذلك دعوة الاطراف اليمينية الاسرائيلية الى طرد الفلسطينيين، وهو ما يعني، ايضاً، وجود مشكلة استمرار الاحتلال. لكن سكان المناطق المحتلة، ومعظم زعمائها، اكدوا، في جميع نشاطاتهم وتصريحاتهم، انهم جزء من الشعب الفلسطيني، وان منظمة التحرير الفلسطينية ممثلهم الشرعي والوحيد، ومن يريد التفاوض معهم عليه الاتصال بهذا الممثل والتفاوض معه. وعكس هذا الموقف درجة تطور الوعي الوطني الفلسطيني الذي يعني، من بين ما يعنيه، عدم امكان التوصل الى تسوية ما لم يكن في صلبها ارضاء الحاجة الى «وطن» على الاقل، ان لم يكن اقامة «دولة الفلسطينيين» على نسق «دولة اليهود».

وهذا يعني، مرة اخرى، تغيير خارطة الشرق الاوسط؛ وهو ما يقتضي، ايضاً، درجة من التوازن الاقليمي في المنطقة؛ كما يعني مستوى معيناً من التوازن الدولي بين العملاقين؛ فخرائط العالم لا تتغير بناء على رغبة الاطراف الصغيرة فقط. ووصل الحال الى وضع لا التسوية فيه ممكنة، ولا الحل مقبول؛ فالتسوية (السلام مع الدول العربية) غير ممكنة لعدم امكان تجاوز الفلسطينيين؛ والحل (اقامة دولة فلسطينية) غير مقبول لأن اسرائيل تعتبره البداية لتدميرها. وفي هذا الوضع، صارت الجهات الاقليمية المعنية بادراة الصراع وادواتها (الدبلوماسية والعسكرية) عاجزة عن حلحلته في هذا الاتجاه، او ذاك. وهذا ما يلخصه قبول الاطراف كافة بالمؤتمر الدولي للسلام في الشرق الاوسط؛ بمعنى ان الاطراف الاقليمية بدأت تبحث مع القوى الدولية العظمى في سبل «فرض» تسوية، أو حل، على الاطراف الاقليمية، مع تشدد هذه الاطراف في ان تكون النتيجة اقرب الى رغبتها؛ اي انها صارت مستعدة لقبول «حل مفروض» يسمح لها بتبرير تنازلاتها الايديولوجية، وهو ما يزيد في عمق المأزق القائم، ويوضح حالة الحصار التي تعانيها الأطراف كافة، التي أدارت الصراع في المنطقة، حتى الآن.

عنصر مساعد لمعادلة صعبة

في الكيمياء يصعب اعادة تحليل بعض العناصر، او تركيبها، مما يدفع الكيميائيين الى البحث عن عنصر مساعد يتولى دور تسهيل تحليل العناصر، او تركيبها. وقد ينتهي دور العنصر المساعد دون ان يدخل في تركيب المعادلة الجديدة، او قد ينتهي الى صوغ معادلة جديدة، هو في صلبها.

هل معادلة الصراع في الشرق الاوسط من الصعوبة بمكان مما يجعلها بحاجة الى عنصر مساعد؟ وما هو العنصر المساعد؟

يتضح لنا من سياق الفقرة السابقة أن «الحل» العربي للمسألة الفلسطينية لم يحقق اي نجاح، سواء حين كانت الحكومات العربية ترفع شعار «الحرب من اجل التحرير»، حيث انتهت تلك المرحلة بالهزائم العربية المعروفة، او حين رفعت شعار «السلام العادل والشامل والدائم» والذي يعتبر السلام المصري ـ الاسرائيلي نموذجه، وفي هذا النموذج تم التخلي، عملياً، عن المسألة الفلسطينية، حتى في الحد الادنى الذي أقر في اتفاقيتي كامب ديفيد (الحكم الذاتي)؛ ولم تكن، بالمقابل، «جبهة الصمود والتصدي» التي قادها المعسكر المعادي لكامب ديفيد افضل حالاً؛ فخارج الخطابة اللفظية، انتهى حال تلك الجبهة الى خلاف مرير بين عنصريها الاساسيين، سوريا و م.ت.ف. ويعود السبب في